الرواية العربية والرواية الجزائرية ؟؟

بغداد أحمد بلية
كاتب و أستاذ جامعي
معهد الآداب واللغات
المركز الجامعي/ سعيدة

إن أهم مشكلة يعاني منها الأدب الجزائري الحديث و بخاصة الرواية منه هي الترجمة، فإذا كانت الظروف السياسية التاريخية مانعا في ترجمة الإبداعات الأدبية إلى اللغة العربية في عهد الاستعمار ، فإن مرحلة ما بعد الاستقلال كانت مليئة بتباشير التغيير و الارتقاء .

بيد أن الحركة الأدبية أخذت منحى جديدا ،ركيزته الفصل بين الكتابة باللغة الفرنسية والكتابة باللغة العربية ، و بهذا سار الإبداع في مسارين مختلفين ،الأول ينهل من الآداب الفرنسية و ينسج على منوالها، يحاول إثبات تميزه بالمضامين و لكن يبقى أبدا حبيس اللغة الفرنسية ، وبالتالي حبيس الانتماء ، أما الثاني فيحاول الإسهام في بطريقته الخاصة في تطور الرواية العربية .

كان من الممكن جدا الاستفادة من الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية لتطوير الرواية المكتوبة بالعربية ، بترجمة إبداعات الروائيين الرواد أمثال مولود فرعون و محمد ديب ومولود معمري ومالك حداد وأسيا جبار إلى اللغة العربية ، و انتشار النسخ العربية عند شرائح القراء بطريقة تمكنهم من الاطلاع عليها بصفة دائمة بإعادة النشر كلما ازداد الطلب عليها .

فنحن لم نعايش مغامرات دون كيشوت للإسباني سرفنتاس بلغته الأصلية ، و لم نعرف أعمال الروائيين الروس أمثال فيودور دوستويوفسكي و لا غوغول و لا ماكسيم غوركي أو ألكسندر سوليتسين و شولوكوف بلغتهم الأصلية ، و لكن الترجمات الفرنسية السائدة عندنا هي التي مكنتنا من التعرف على الأدب الروسي و كذلك الأدب الأنجليزي كروايات ولتر سكوت التاريخية أو شارل ديكنز الواقعية أو إميلي برونتي و شارلوت برونتي او جورج صاند أو جيمس جويس الإرلندي ، و حضر الأدب الأمريكي بغير لغته ، مع روايات فيتزجيرالد وجون شتنبك و إرنست همنغواي، كما اطلعنا على الأدب الإيطالي مع جيوفاني فيرجا و ألبرتو مورافيا و إيناسيو سيلوني ، و لا ننسى الأدب الألماني مع غوته و فرانز كافكا ..

إن الإصرار على تداول إبداعات الروائيين الجزائريين باللغة الفرنسية جعل الهوة تتسع بين المبدعين الجزائريين ، و عوض أن تتأخر الرواية العربية إلى غاية السبعينيات من القرن العشرين لتعرف أول رواية ذات حبك فني جيد متمثلة في اللاز لطاهر وطار و ريح الجنوب لعبد الحميد بن هدوقة كان من الممكن الاستفادة من التجربة الفنية لكتاب جزائريين كتبوا باللغة الفرنسية ، و بالتالي يكون تطور الرواية أكثر نضجا من مساره الحالي .

لم يهمل المهتمون بشؤون الأدب ترجمة روايات الخمسينيات و الستينيات من القرن الماضي فقط ، وإنما غضوا الطرف تماما عن الروايات السابقة لتلك الفترة ، روايات لم يكتب لأصحابها معايشة الثورة أو الانضمام إليها .

و راح الكثير من مؤرخي الأدب يراهنون على محمد ديب و مولود فرعون و مولود معمري على أنهم رواد الرواية الجزائرية ، و يحددون سنة **1950** على أنها البداية الحقيقية للرواية في الجزائر ،غير أن الكتابة الروائية سبقت ذلك التاريخ بأزيد من نصف قرن .

لكن جل تلك الإبداعات ظلت حبيسة في أدراج المكتبات العتيقة ، لا يتداولها إلا المتخصصون ، ولم تعرف طبعا جديدا منذ صدورها أول مرة ، بينما نجد نصوصا من الأدب الفرنسي و الإنجليزي تعود إلى القرون السادس عشر و السابع عشر و الثامن عشر يعاد طبعها في حلل بهية ، حتى و إن كانت ضعيفة السبك ركيكة الأسلوب ، فأهميتها التاريخية سبب معقول لنشرها و رواجها .

من بين الروائيين الرواد نجد شكري خوجة صاحب رواية " العلج أسير البرابرة " المطبوعة سنة **1929** بدار أراس للنشر بباريس ، إسم و رواية لا نسمع لهما ذكرا إلا في كتب تاريخ الأدب ، و لكن المترجمة سامية سعيد عمار منحت المؤلف و روايته حياة جديدة بترجمتها إلى اللغة العربية[1]، فهذه الترجمة قد تمكننا من التعرف أكثر على نص روائي يعود إلى الثلاثينات من القرن الماضي ، بغض النظر عن قيمته الأدبية، فإن أهميته تكمن في التأريخ للرواية الجزائرية .

حال رواية شكري خوجة هي نفسها حال روايات كل من ابن رحال و سليمان بن براهيم و نصر الدين دينه أو أحمد بوري و القايد بن شريف و عبد القادر الحاج حمو و محمد ولد الشيخ و غيرهم .. روائيون لم يعاد نشر رواياتهم و لم تترجم إلى اللغة العربية ، ما عدا محمد ولد الشيخ الذي نشرت روايته "مريم بين النخيل " سنة**1984** .[2]

أسباب تأخر الرواية العربية في الظهور :

أثارت الرواية ذات الرسم الفرنسي في الجزائر نقاشا حادا منذ عقود من الزمن، لا يكاد يهدأ حتى يستثار من جديد ، كما أن رحيل محمد ديب سنة **2004** ، بعدما فقد الأدب الجزائري مولود فرعون وكاتب ياسين و مولود معمري و مالك حداد و من المتأخرين رشيد ميموني ، كان سببا في نبذ الخصومات والنظر إلى الظاهرة الأدبية بنوع من الموضوعية . و لكن عالم الرواية الجزائرية المكتوبة بالرسم الفرنسي مليىء بالمفاجآت، إذ كان لتتويج آسيا جبار آخر روائية جزائرية من جيل الرواد عضوا دائما في الأكاديمية الفرنسية أثره البارز في نفوس المهتمين بشؤون الأدب ، و هو حدث له دلالاته الأدبية و السياسية ، و سبق لنفس الأكاديمية أن منحت الجائزة الكبرى للفرنكوفونية سنة **1994** لمحمد ديب ، و قبله تحصل كاتب ياسين على الجائزة الوطنية للآداب من طرف وزارة الثقافة الفرنسية (**1987**) و بعدهم ياسمينا خضرا .

إن تتويج آسيا جبار و محمد ديب جاء متأخرا من طرف المهتمين بشؤون الأدب الفرنسي ، فلطالما اعتبرت الرواية الجزائرية و المغاربية المكتوبة بالفرنسية بدون هوية ، فبالرغم من نشر جل الكتاب أعمالهم في دور النشر الباريسية، إلا أن النقاد الغربيين ظلوا يترددون بين نسبة تلك الآثار الأدبية إلى جنسية أصحابها أو إلى جنسية لغتها ، ففي مرحلة الاستعمار كان الأمر طبيعيا نظرا للسياسة المنتهجة من تغييب للغة العربية وفرض اللغة الفرنسية على جميع الجزائريين ، غير أن الوضع تغير بعد الاستقلال ، حين بدأت الجهود تتضاعف لبعث اللغة العربية في الحقل الثقافي و الفكري و الأدبي .

و رغم الجدال العنيف حول نسبة الرواية المكتوبة باللغة الفرنسية إلى الأدب الجزائري، إلا أن هذا النوع من الكتابة الأدبية فرض وجوده على الساحة الأدبية الجزائرية ، و مرجع ذلك حتما إلى قوة إبداع الروائيين و بخاصة جيل الخمسينات ، و ما زاد في شدة الخصومة بين الرافضين للرواية المكتوبة بالفرنسية أنها كانت أسبق للوجود و أحسن حبكا من نظيرتها المكتوبة باللغة العربية التي لم تعرف النضج الفني إلا مع نهاية الستينات و بداية السبعينات من القرن الماضي .

و لعل ذلك التفوق جعل كاتب ياسين يصرح أكثر من مرة بأن الفرنسية غنيمة حرب، و يحق لكل متقن لها أن يستعملها كيفما يشاء ، أو مولود معمري الذي يرى أن الكتابة باللغة الفرنسية ثورة للثقافة الجزائرية ، كما يدافع بعض النقاد عن نفس الأدب معتبرين إياه الصوت الحضاري الجزائري للعالم ، فمن خلاله عرف العالم الأدب الجزائري .

ظل التساؤل هاجسا يساور الكثير من القراء و المهتمين بالأدب الجزائري ممن لا ينتصرون لرأي دون الآخر فكلاهما صائب ، و لا أحد ينكر أهمية و قيمة الرواية المكتوبة بالفرنسية سواء أثناء الثورة أو بعد الاستقلال و حتى المراحل المتأخرة من تاريخ الجزائر الحديث.

و لكن الأمر يحتاج تحليلا موضوعيا بعيدا عن التحيز، و ذلك بتحديد بعض المعايير الفنية الأدبية من جهة و التاريخية من جهة أخرى.

يجب التاكيد على أن الكتابة الروائية فن جديد في الأدب العربي ، منبعه الآداب الأوروبية ، إذ كانت الرواية في القرنين السابع عشر و الثامن عشر وسيلة للتسلية من خلال العجائبية الخيالية و روايات الفروسية ، ثم عرفت أوروبا ضمن منطق التطور الإجتماعي والسياسي و الفكري الرواية الرومانتيكية مع جان جاك روسو و سننكور و لاكلو و فكتور هيجو ، ثم ظهرت الرواية الواقعية في القرن التاسع عشر مع بلزاك وزولا و فلوبير و كذا ديكنز ودوستيوفسكي ...

زار الكثيرمن الروائيين الفرنسيين الجزائر ضمن رحلاتهم الاستكشافية بحثا عن مظاهر استشراقية فيها، و من بينهم ثيوفيل غوتي و غوستاف فلوبير و ألفونس دودي و أوجين فرومونتان ،و استقر بعض الكتاب ممن كانوا أقل شهرة في هذه الأرض الجديدة ، و بخاصة بعدما تمكن الجيش الاستعماري من فرض سيطرته العسكرية على معظم الأراضي الجزائرية ، ومن بينهم لوي برتران (**1866 -1941**) ، الذي حاول فرض هيمنة الآداب

اللاتنية على الساحة الجزائرية الاستعمارية ، و محو كل أثر للوجود الجزائري الأصلي فيها، فكانت وسيلته في ذالك رواياته دم الأجناس (**1899**) شينا (**1901**)الحبيبة بيبيت (**1920**) مدن الذهب (**1921**) ، و سار على خطاه روبير روندو (**1873** –**1950**) الذي عبر عن انتمائه اللاتيني من خلال رواياته و منها "المستوطنون "(**1907**) .و تبعهما آخرون أمثال بول أشار وغابريال أوديزيو[**3**] ، إلى أن ظهرت فئة جديدة من الروائيين ولدوا في الجزائر أشهرهم ألبير كامي وإيمانويل روبلس .

و بالرغم من امتداد أصول الرواية إلى الأدب الفرنسي و الأوروبي ، إلا أن إبداعات كل من لويس برتران و روبير روندو كانت محاولة للتميز بنوع روائي جديد سمي فيما بعد بالمدرسة الجزائرية أو الرواية الكولونيالية .[**4**]

إن الزخم الكبير من الروايات الفرنسية التي تعود إلى القرنين الثامن عشر و التاسع عشر الصادرة في فرنسا و المتداولة في المكتبات ، أو التي أعيد طبعها في دور النشر بالجزائر و منها أسكيرول و شرلو و شاراس و سوبيرون و هومو في الجزائر العاصمة أو دار شازو و بلازا و فوك بوهران أو دار بوي بقسنطينة[**5**]، وكذا إبداعات المستوطنين أنفسهم كانت الزاد الذي تغذى به بعض الجزائريين في مطلع القرن العشرين ، بعدما فرضت عليهم السلطات الفرنسية التعليم باللغة الفرنسية ، و حظرت التعليم باللغة العربية ، كما سعت إلى محو كل أثر للشخصية الوطنية وبخاصة ما تعلق بالدين الإسلامي ، و في غياب التواصل مع الشعوب العربية المجاورة لم يجد المثقفون الجزائريون آنذاك إلا تقليد الأدب الفرنسي ، سواء في أشعاره أو كتاباته النثرية بداية بالمقالات التي كانت تنشر في المجلات و الصحف التي أخذت تعرف الوجود ، و منها الشبان الجزائريون (وهران **1904**) و الهلال و الإسلام و الراشدي و الحق (بين **1904** –**1912**) و كلها صحف مزدوجة اللغة .[**6**]

و يتفق النقاد على أن الرواية المسماة كولونيالية لم تبلغ مكانة الروايات الفرنسية ، بل كانت ضعيفة الحبك ، يطرح أصحابها أفكارا مسبقة نابعة من تفوق الجنس الأوروبي و تخلف العربي ، يسيطر عليها رأي المؤلف و ينعدم فيها التحليل الدقيق للشخصيات الروائية كما يبدو جليا العنصر التعليمي فيها.[**7**]

وكان لزاما على بعض الجزائريين ممن أحسوا أنهم يمتلكون القدرة على التعبير بلغة المستعمر أن ينسجوا على نفس منوال تلك الروايات السائدة في بيئتهم على سبيل التقليد، وبعضهم حاول إظهار براعته في ممارسة الكتابة بلغة المستعمر . و هكذا نشر أحمد بوري رواية متسلسلة في جريدة الحق و هي مسلمون ونصرانيات (**1912**)ثم تبعه القايد بن شريف و روايته القومي أحمد بن مصطفى (**1920**) ثم عبد القادر الحاج حمو الذي ألف زهرة زوجة المنجمي (**1925**)و تليها العلج أسير البربر لشكري خوجة، و لا ننسى بعض المحاولات الشبه قصصية مثل " إنتقام الشيخ " لابن رحال(**1891**) أو العمل الثنائي بين سليمان بن براهيم و نصر الدين دينيه " خضرة فتاة من أولاد نايل " (**1910**) .

أما روايات ما بين الحربين العالميتين فليس لها ما يميزها من الناحية الفنية ، و منها رواية " عيسى الزهار " لمحمد سيفي (**1945**) و " بولنوار " للإخوة زناتي (**1945**) و " ليلى " لجميلة دباش(**1947**).[**8**]

و في تلك المرحلة أثارت انتباه القراء رواية متميزة و هي " مريم بين النخيل " للروائي محمد ولد الشيخ نشرتها دار بلازا بوهران **1936** .

و يبدو أن أصحاب تلك الروايات الرائدة من دعاة الإندماج ، لذلك لا نكاد نعثر على آثارهم في المكتبات الجزائرية ، ما عدا رواية محمد ولد الشيخ التي أعيد نشرها سنة **1985** ، مما مكننا من الإطلاع على محتواها ، و التعرف على مقدرة صاحبها في التحكم في فنيات السرد.

ظهرت رواية محمد ولد الشيخ في مرحلة عصيبة من تاريخ الجزائر الحديث ، فقد تمكن الغزاة الأوروبيون من فرض سيطرتهم على كامل تراب الجزائر من الشمال إلى الجنوب ، و قد مر على الاستعمار قرن من الزمن ، تمكن فيه المستعمرون من فرض لغتهم على أبناء الشعب الجزائري و تضييق الخناق على اللغة العربية،غير أن الطبقة المثقفة الجزائرية لم ترضخ لضغوط المستعمر ، و بدأت تدعو إلى المعاملة المتماثلة بين السكان الأصليين و بين الأوروبيين الوافدين المستوطنين، و هو ما أطلق عليه سياسة الإدماج .

في هذا الجو المشحون بالتناقضات يؤلف محمد ولد الشيخ روايته مريم بين النخيل، محاولا إبراز حالة الصراع الفكري بين الأوروبيين و الجزائريين في العقد الثالث من القرن العشرين، و لكنه يناقش القضية بطريقة رمزية ترتكز على الواقعية التاريخية . و يبدو أن الرقابة الفرنسية دفعته إلى سلوك هذا النهج ، و بخاصة أنه ليس بإمكانه طبع عمله في فرنسا.

يبرز محمد ولد الشيخ محاسن الحضارة الغربية ، التي تجلت عن طريق العلم و التعليم ، ولهذا يدعو إلى إتباع هذا الطريق المؤدي حتما إلى التحضر ، و لكنه يرفض الإندماج التام في الحضارة الغربية ، بحيث يتخلى المرء عن قيمه الدينية و الروحية .

لا شك أن التربية المدنية في المدارس و الثانويات الفرنسية أتت نتائجها لدى محمد ولد الشيخ بالانبهار أمام حضارة الأوروبيين ، غير أنه لم يتنكر لتربيته الدينية ، و هو سليل أولاد سيدي الشيخ الذين قاوموا الجيش الفرنسي في بداية الإحتلال ، كما أنه ولد ببشار بالجنوب الغربي الجزائري ، و هي بيئة صحراوية لم تفقد طابعها الصحراوي و قيمها الإجتماعية النابعة من صميم الدين الإسلامي، كل هذا جعل الروائي يغور في أعماق البيئة الصحراوية و يجليها للقارئ بل و ينقد سلبياتها و بالتالي يفضح الممارسات الملصوقة بالدين الإسلامي و هو براء منها .

يجول الروائي في فضاءين مختلفين ، عالم الشمال الجزائري الذي تفرنج و فقد قيمه الإسلامية ، من خلال مغامرة امرأة جزائرية تزوجت من قائد فرنسي و أنجبت منه طفلين هما جون – حفيظ و مريم – ماري ، لا تستطيع الأم أن تجابه الأب و تفرض ثقافتها على ولديها إلا بعد وفاة الأب القائد دوبيسي، ويشاء القدر أن تكون منطقة تافيلالت الحدودية بين المغرب والجزائر سبب مصرعه .

و هكذا ينتقل الروائي إلى عالم الصحراء يتتبع بمهارة دقائق ما جرى في منطقة تافيلالت المكونة من عشرات القصور (القلاع) التي يحكمها سلطان فرض نفسه بالقوة (في حركة انفصالية عن ملك المغرب الأقصى) و لكنه عوض أن يتدارك نقائص الملك ينشر الذعر والخوف و الظلم بين أهالي القصور .

إن التشابه بين قصور منطقة تافيلالت و قصور الجنوب الغربي الجزائري من أدرار إلى بشار إلى منطقة جبال القصور بالهضاب الغربية ،كان الدافع القوي لتصوير تلك المنطقة الحدودية ، بيد أن القصور الجزائرية كانت تحت سيطرة المستعمر الفرنسي منذ العقد الأول من القرن العشرين ، بينما بقيت منطقة تافيلالت معقل المقاومة في المغرب العربي ، و لكن المؤلف يعكف بالدرجة الأولى على تبيين أسباب الفشل و الهزيمة .

و هنا تتضح نظرة الروائي النقدية لمجتمع الشمال المندمج تماما مع الحضارة الغربية ، ومجتمع الجنوب المحافظ على نظام الحكم التقليدي الذي يؤدي إلى نتائج سلبية على مجتمع الجنوب ، فالحاكم لا يهمه إلا مصالحه الشخصية و لا يلتفت إلى تعليم و ترقية الشعب مما يجعل ضرره مساويا لأضرار المستعمر .

نفس الموضوع أشار إليه الروائي شكري خوجة من خلال روايته العلج أسير البرابرة ، فقد بين الصراع النفسي الذي يعانيه برنار لوديو النصراني الأسير من طرف قراصنة الجزائر ، حين يعرض عليه سيده أحد الأثرياء المسلمين اعتناق الإسلام مقابل حريته ، يعتنق بطل الرواية برنار لوديو الإسلام حفاظا على نفسه من أدى الحكام ، و لكنه في حقيقته متمسك بدينه الأصلي .

يرمز شكري خوجه بهذا الموقف للشعب الجزائري الذي خيره المستعمر بين الإندماج أو فقدان حقوقه .فقد كانت قضية الإندماج التي طرحها الروائيون في أعمالهم أهم قضية يواجهونها في العقد الثاني والثالث من القرن العشرين ، فلم يجدوا أحسن وسيلة للتعبير عنها إلا الفن القصصي الذي يجسد الواقع، ويطرح الأفكار برمزية أو بطريقة مباشرة .

و هي نفس الأفكار التي طرحها معاصروهم في مصر و بعض الدول العربية الأخرى من انتصار للفكر الغربي و حضارته ، و رفض الفكر الإسلامي القومي، بحجة ضعف الثاني و قوة الأول من أمثال قاسم أمين من خلال كتابيه " تحرير المرأة " و" المرأة الجديدة " إذ بين إيمانه العميق بالحضارة الغربية و دعا إلى ضرورة اتخاذها مثلا أعلى ، و اهتدى بهديه كل من توفيق الحكيم و طه حسين و فرح أنطون ومجموعة من الأدباء و المفكرين العرب.

لكن توفيق الحكيم يخلص في النهاية إلى النتيجة التالية : " نحن نعيش اليوم في عصر حضارة عظيمة هي الحضارة الأوروبية ، فأي جهل منا بفرع من فروع هذه الحضارة معناه التخلف و القعود ، إن روح الحضارة الإسلامية الحقيقي كان الطموح إلى الإلمام على قدر الإمكان بكل الأفكار و المعارف والعلوم والفنون الشائعة في الحضارات المعاصرة لها".[9]

بيد أن النقاش حول علاقة الأمة العربية و الحضارة الغربية يختلف عنه في الجزائر ، ففي مصر كان منبع النقاش الحرية الفكرية و السياسية حول مصير مصر العربية ، بينما كان النقاش حول الموضوع في الجزائر حتمية يفرضها المستعمر دون مراعاة لشعور أو فكر المستعمر الضعيف.

و في الحقيقة لم يحسم أمر هذا الصراع إلى يومنا .

لم تبلغ الروايات الجزائرية الأولى درجة فنية من السرد القصصي ، و هذا لاعتمادها على تقليد الروايات الكولونيالية من جهة ، و لكون الرواية كانت فنا قصصيا جديدا على الأديب الجزائري ، بل العربي بعامة ، و بما أن الجزائري لم يتمكن من الإطلاع على النماذج العربية في فن الرواية فكان لزاما عليه التقليد ، و هذه حتمية أدبية .في حين تمكن الشاعر الجزائري بسهولة أن يبعث و يبدع في فن الشعر لعراقته ، فبالرغم من مضايقات المستعمر إلا أن الشاعر وجد ركيزة أدبية اتكأ عليها ، فكان تقليد القدامى أولا ثم بدأ التجديد في الأشكال التعبيرية الشعرية ، أما الرواية فلا يمكن لمبدعها أن ينطلق من العدم .

و مع مطلع الخمسينات تغيرت اهتمامات المثقفين و السياسيين ، و بدأت تلوح في الأفق بوادر الإحتجاج و الثورة و إثبات الذات ، فكانت أول محاولة من طرف مولود فرعون (**1913 –1962**) من خلال روايته " نجل الفقير " **1950** ، الذي صور معاناة الطبقات الفقيرة في المجتمع الجزائري ،يتبعها بالأرض و الدم **1953** و الدروب الصاعدة **1957** ، ويظهر محمد ديب بعمل متميز " الدار الكبيرة " أولا ثم " الحريق " **1954** و بعده " النول " **1957** ، و في نفس المرحلة يقابلنا مولود معمري بعملين هما "الربوة المنسية " **1953** و"إغفاءة العادل"**1957** ، أما كاتب ياسين فيبدع " نجمة " (**1956**)، ثم نجد روائيا آخر يظهر على الساحة الأدبية هو مالك حداد بروايته " الإنطباع الأخير " **1957** ، ثم " سأهديك غزالة " و"التلميذ و الدرس " .بينما نجد صوتا نسويا فريدا يفرض نفسه من خلال " العطش" **1957** و"المتسرعون" **1957** للروائية أسيا جبار .

كل هذه الأعمال الروائية بلغت درجة من الإتقان في السرد ، و التحكم في البناء الدرامي للفن الروائي ، فلا عجب في ذلك إذ تمكنت الرواية الكولونيالية من بلوغ درجة عالية من العمق مع روائيين مشهورين أمثال إيمانويل روبلاس" مرتفعات المدينة " **1948**،و كذا ألبير كامي (**1913 –1960**) من خلال أعماله الخالدة الغريب (**1942**) و الطاعون (**1957**) .

و قد التقى كل من محمد ديب بألبير كامي و إيمانويل روبلس في شتاء **1948** ، واتفقوا على إنشاء مجلة كراسات أدبية ، و التقى مولود فرعون بإيمانويل روبلس ببوزريعة بالجزائر العاصمة و هو الذي شجعه على الكتابة (**10**).

و من ناحية أخرى فإن الرواية تطورت في أوروبا و بخاصة فرنسا و كذلك في الولايات المتحدة وأمريكا اللاتنية ، و كان لهذا تأثيره الخاص على كتاب الرواية في العالم ، فقد مزج كل من إرنست هيمنغواي (لمن تقرع الأجراس **1948**) و جون شتانبك (فئران و رجال **1939**) بين التحليل الصحفي و السرد الروائي ، و بهذا أصبح التركيز عند الروائي على الأحداث و الوقائع مهما كانت طبيعتها ، و هذا ما جسده بجلاء جورج أرنو (

أجرة الخوف) وهرفي بازان (الأفعى في قبضة اليد) و(الرأس أمام الجدران) ، وكذلك ميشال دوسان بيار مع (المستحيل) ، بينما يتوجه ميشال سيزبيرون إلى التحقيقات الصحفية فيحولها إلى روايات مثل (الكلاب التائهة بدون قيد) بحيث صور مصير الطفولة الجانحة .و هكذا أخذ الروائيون يعرضون عن قصص الطبقات الغنية و المتوسطة من مجتمعاتهم ليتحولوا إلى الطبقات الفقيرة و البائسة مثلما نجد عند جون شتانبك (عناقيد الغضب) و كلدويل (طريق التبغ) و(أرض الله الصغيرة).و في إسبانيا يستحضر الروائيون تفاصيل الحياة القاسية للمحرومين و البؤساء من المجتمع ، من خلال رواية " الكور " والغريق **1939** لأرتورو باريا و كذلك دروب الليل لجوان سبستيان أربو وكذلك المتكبرون لجيزوس فرنندز سنتوس، أما إيطاليا فقد عرفت الواقعية الجديدة التي تتوجه إلى فئات منسية من المجتمع الإيطالي من الفلاحين و الفقراء ، وهكذا كتب ألبرتو مورافيا" إمرأتان" وإيناسيو سيلوني" خبز وخمر" **1937** وكارلو ليفي " توقف المسيح بإيبولي " **1945** .[11]

كما كان للتيارات الأخرى أثرها على الروائيين الجزائريين كالتوجه الفني التأملي في مصير الإنسان مع أندري مالرو و فولكنر و بروست و فرجينيا وولف وجون بول سارتر ، و ما .قام به فرانز كافكا من تفكيك الشخصية و فضاء الرواية ، مع دمج الملاحظات الفكرية مع روبير موزيل ، أو تبئير السرد مع دوس باسوس. [12]

أو تيار الرواية الجديدة مع ناتالي ساروت و ألان روب غرييه .

و لكنه تأثير لاحق ، أي في الستينات و ما بعدها ، أما مرحلة الخمسينات فكانت مرحلة تصوير المجتمع البائس الفقير ، و كان الروائيون يستندون على سيرهم الذاتية ليصبغوا العملية السردية بالإنطاع الذاتي الصادق .

إن الغرض من تحليل ظاهرة الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية ليس قبولها أو رفضها ، أو الإطراء عليها أو نقدها ، و إنما الغرض منه تبيين أن الرواية كفن غربي حديث النشأة في الأدب العربي، أما تطوره في الرواية المكتوبة بالفرنسية فمرجعه الرصيد الهائل من الروايات الأوروبية منذ القرن السادس عشر إلى غاية الخمسينات من القرن الماضي ، و بالتالي فإن مقارنة تطور الرواية المكتوبة بالعربية التي ظهرت في نهاية الأربعينات مع أحمد رضا حوحو " غادة أم القرى " **1947** ، أو " الطالب المنكوب" لعبد المجيد الشافعي **1951** أو الحريق لنورالدين بوجدرة (**1957**) أو صوت الغرام لمحمد منيع **1967**، بروايات محمد ديب أو كاتب ياسين أو مولود معمري و مالك حداد فيه نوع من المغالطة التاريخية .

كانت تلك الروايات العربية تفتقر إلى الجانب الروائي الفني ، و لكنها بدايات تاريخية لإدخال فن الرواية إلى عالم الكتابة باللغة العربية ، و بالتالي المساهمة الجزائرية في الرواية العربية.

و هذا ما جسده فعلا كل من عبد الحميد بن هدوقة مع ريح الجنوب **1971** و الطاهر وطار مع اللاز **1972** ، متأثرين في البداية بالتيار الواقعي ثم الواقعية الإشتراكية ، و هكذا أخذ الفن الجديد يأخذ مكانته اللائقة به في مصف الأدب العربي الجزائري ، إذ برز الكثير من الروائيين من بينهم مرزاق بقطاش ومحمد عرعار و عبد

المالك مرتاض و علاوة بوجادي واسماعيل غموقات و واسيني لعرج و شريف شناتلية و حاجي محمد الصادق والحبيب السايح ومونسي الحبيب وأمين الزاوي و بشير مفتي و حميدة العياشي وغيرهم ....

و في إطار التلاسن الأدبي ذاته ، يواجهنا رشيد بوجدرة بروايته " التفكك "**1982** المكتوبة باللغة العربية ، ثم يترجمها بنفسه إلى اللغة الفرنسية ، مما دفع الكثير إلى التساؤل : أيهما أصل المكتوب باللغة العربية أم بالفرنسية؟؟

كما أن جل الروايات المكتوبة بالعربية ترجمت إلى اللغة الفرنسية ، و لكنها بقيت عربية ، في حين بقيت الروايات مكتوبة باللغة الفرنسية و المترجمة إلى اللغة العربية مثل ثلاثية محمد ديب الدار الكبيرة ، الحريق، النول , كذا روايات مولود فرعون نجل الفقير أو روايات رشيد بوجدرة التي ترجمت كلها إلى اللغة العربية،فقد ظلت أبدا روايات مكتوبة بالفرنسية ، و نفس الأمر لوحظ على رواية العارية التي كتبها عبد الحميد بن هدوقة **1984** باللغة الفرنسية.

إن الأمر لم يطرح فيما يخص الشعر الجزائري المكتوب بالفرنسية ، مع محمد ولد الشيخ ، الذي نشر أول مجموعة شعرية "أغاني لياسمين" (**1930**) ،أو محمد ديب مع أول قصيدة فيغا المنشورة بمجلة فورج (**1947**) و بعدها أشباح حارسة (**1961**) ، أو كاتب ياسين" مناجاة النفس" (**1946**) وكذلك رشيد بوجدرة الذي نشر أول ديوان له سنة **1965** " حتى لا نستمر في النوم "،فتلك الأشعار كلها نسجت على منوال الشعر الفرنسي .

و مع هذا هل يجوز لنا القياس مع الرواية المكتوبة باللغة الفرنسية كونها نسجت على منوال الرواية الفرنسية مع أن مضامينها السردية نابعة من فضاء مكاني و زماني جزائري ؟؟

لقد عبر الروائي مالك حداد بصدق عن كنه الإبداع باللغة الفرنسية بقوله :

" إن اللغة الفرنسية هي منفاي ".فقد ظل يتأسف على عدم إتقانه للغته الأم (العربية) ، و عدم قدرته على الإبداع بها . [13]

إن الرواية المكتوبة باللغة الفرنسية في حقيقة الأمر تمثل ظاهرة أدبية و لغوية ، إذ ليس بإمكان جميع المبدعين نشر أعمالهم في دور النشر الباريسية ، بحيث يبقى معظمها حبيس المكتبات المحلية ، و بهذا لا يسعى الروائيون الجدد إلى التعريف بالأدب الجزائري خارج الحدود مثلما فعل الرواد .

يخالف وضع الجزائر وضع دول تستعمل عدة لغات أصلية مثل سويسرا أو بلجيكا أو كندا، و لا أحد يشك أن اللغة الأصلية في الجزائر هي اللغة العربية ، و بالتالي تغدو الرواية العربية هي الجزائرية ، ومن الأفضل تسميتها " الرواية الجزائرية " .

أما ما يكتب بلغات مختلفة مثل الفرنسية أو بعض المحاولات لكتابة الرواية باللغة الانجليزية أو اللغة الإسبانية (هناك محاولات عديدة في كتابة الرواية بالإسبانية في المغرب) فإنها إبداعات تثري الآداب الفرنسية و الإنجليزية و الإسبانية ، كما يمكنها أن تثري الأدب الجزائري إذا تمكن أصحابها من كشف أسرار العمق الإنساني ، و إبراز كنه الحقائق البشرية ، و التنبؤ بمصير المجتمع الذي يعيش فيه الروائي.[14]

فالروائي هو الذي يفهم كل شيء و يعيد ترتيب كل شيء ، لكن الروائي الماهر هو الذي يساعدنا على الكشف عن الأجزاء الخفية من حياتنا و التعبير عنها ، أجزاء يبدو للوهلة الأولى أنه لا يمكن الاطلاع عليها (15) .

و بهذا لا تغدو اللغة بؤرة الخلاف بين المبدعين ، إذ يكفي ترجمة العمل الإبداعي إلى اللغة العربية ليأخذ مكانته اللائقة به في مجتمعه ، بل إن نفس العمل إذا ترجم إلى أي لغة من لغات العالم سيلقى الاهتمام اللائق و الانطباع الحسن .

و هذا لا يعني إلغاء اللغات الأخرى في بلادنا و عدم استعمالها ، و لكن يعني وجوب القيام بترجمة الآداب العالمية إلى لغتنا العربية ، و الأهم من ذلك ترجمة كل الروايات المكتوبة باللغة الفرنسية لكتاب جزائريين حتى يتمكن القارئ الجزائري من الاطلاع عليها ، فقد تمكن الترجمة من تخليد العمل الأدبي أكثر من لغته الأصلية ، مثل ترجمة مصطفى لطفي المنفلوطي لرواية" بول و فرجيني " التي عرفت القارئ العربي برواية برناردن دو سان بيار المغمورة ، و هنا يجب التنويه بأن حركة الترجمة في المشرق العربي تسير بخطى وثيقة أحسن منها في المغرب الأوسط ، فالقارئ قد يتمكن بسهولة التعرف على الإبداعات الأدبية االعالمية مترجمة إلى اللغة العربية ، و لا يفرض عليه تعلم اللغات الأصلية لمختلف الإبداعات ، بينما يبقى القارئ الجزائري متعلقا باللغة الفرنسية ، و ما تتيحه له من ترجمات للروايات العالمية حتى يتعرف عليها ، و هذا لحسن حظه كون الترجمة باللغة الفرنسية مواكبة للإبداع بينما الترجمة العربية تكاد تكون منعدمة في بلادنا ، وهذا الوضع و إن مكننا من استغلال عامل الزمن ، إلا أنه يكرس لتفوق لغة على حساب أخرى .

الإحـــالات

1 –سعيد خطيبي : العلج أسير البرابرة ، بدايات الانزلاق .الأثر 1 أفريل 2008 ص 15

2 – Mohammed Ould Cheikh :Myriem dans les palmes ,OPU,Benaknoun ,1984

3– Jean Dejeux :La Littérature Algerienne Contemporaine , P.U.F ,1979 p36

4– Idem p 24

5 – Ahmed Lanasri : Mohammed Ould Cheikh ,Un Romancier Algérien des Années Trente , OPU ,1986 ,p32

6– Idem : p33

7– Idem p 33

8– Idem p59

9 –توفيق الحكيم : زهرة العمر ، ط 4 ، القاهرة ، 1955 ص 169 –170

10 – Jean Dejeux : Idem. p63

11 –ر.م . البيرس :تاريخ الرواية الحديثة ص314 –315

12 – نفسه ص 256

13 – Jean Dejeux : Idem p74

14 – ر.م . البيرس : المرجع نفسه ص 7

15 – نفسه ص 7